يوسُف عليه السلام يخطط ويحل أزمة أمة

تاريخ النشر في جريدة أخبار الخليج: 31 يناير 2016

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

إن الذي أخرج سيدنا يوسُف عليه السلام من سجن طويل هو أمرين؛ الأول: قدرته على تفسير حلم الملك، والثاني: لم يكتفي يوسف عليه السلام بتفسير رؤيا الملك وإنما – وهذا ما تميز به عليه السلام عن بقية المفسرين في عصره – أن قدم الحلول الناجعة لأزمة اقتصادية غذائية كادت أن تحل على مصر على الرغم من ذلك النهر العظيم وتلك المحاصيل التي تمتد مد البصر.

بدأت القصة كما ورد في سورة يوسف – الآية 43 حينما قال تعالى على لسان عزيز مصر (وَقَالَ المَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا المَلأُ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ)، فيلاحظ أن الحلم يتكون من مشهدين؛ الأول: سبع بقرات سمان ولا يعرف كنههن، ولكن تأتي سبع بقرات عجاف أي هزيلات لتأكل تلك البقرات السمان، وينتهي المشهد الأول ليبدأ المشهد الثاني وهو أن الملك يرى سبع سنبلات خضر ريانه وسبع سنبلات جافة ميتة، هذا هو الحلم.

من النظرة الأولى نجد أنه لا توجد روابط بين كل تلك المشاهد لذلك فإن المفسرين الموجودين في قصر الملك عجزوا عن تفسير تلك الرؤيا، أو

ربما أنهم فهموا إلا أنهم من الذين لا يرغبون أن يكدروا صفوا القادة ببعض الأحلام ومشاكل العامة لذلك تهربوا من مسؤوليتهم، فكان أبسط وسيلة للهروب أنهم قالوا أنها أضغاث أحلام، فلا تكدر نفسك ولا تفكر فالأمر غير مهم.

وتشاء قدرة اللّه تعالى أن تصل تلك الرؤيا إلى مسامع سيدنا يوسُف عليه السلام، فلم يكتفي برؤية المشاهد غير المترابطة وإنما فهم أبعاد تلك الرؤية وعلاقتها بالواقع المعاش، لذلك فهو لم يقم بتفسير الرؤية فحسب، حيث كان بالإمكان أن يقول لمن جاءه يطلب تفسير الحلم أن البلاد ستمر بأزمة غذائية ويسكت، فهو لم يكن من مواطني هذه البلاد، ولم تكرمه هذه البلاد وإنما أدخلته السجن لسنوات طويلة نتيجة لمؤامرة دنيئة، ولكن حس المسؤولية التي كانت يتمتع بها عليه السلام جعلته يتجاوز كل ذلك من أجل إنقاذ البشرية، لذلك لم يكتفي بأن يفسر الحلم بالسذاجة المعهودة وإنما وضع خطة لتجاوز تلك الأزمة التي ستقصف بالبلاد والعباد، على الرغم من أن الأزمة لم تأتي بعد، فقال سبحانه وتعالى على لسان سيدنا يوسُف في الآيات التالية (قالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دأَباً فَما حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ (47) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ سَبْعٌ شِدادٌ يَأْكُلْنَ ما قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ (48) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ (49).

مرة أخرى ماذا فعل سيدنا يوسُف عليه السلام ؟

قام ببساطة بتفسير رؤيا الملك ولكن بطريقة علمية خارجة عن المألوف، وفي نفس الوقت تنبأ بحدوث أزمة اقتصادية غذائية سوف تجتاح البلاد من أقصاها إلى أقصاها، وأخيرًا وضع الحلول الناجعة لتجاوز تلك الأزمة قبل حدوثها وهو ما يعرف في علم إدارة الأزمات بوضع خطة أو خطط قبل وقوع الأزمات من أجل أن لا تكبر الأزمة لتصبح كارثة وإنما إن كان بالإمكان فيمكن أن تبقى أزمة أو أن تصغر حتى تصل إلى مرحلة المشكلة، لأن مصطلح المشكلة أقل وطئً من مصطلح الأزمة على الأنسان، وتبقى الكارثة هي أكبر تلك المصطلحات.

كان المحور الأساسي للرؤيا هي الأزمة الغذائية التي كانت ستعصف بالبلاد، وذلك بعد سبع سنوات من تلك اللحظة التي كان يتحدث فيها، وستستمر تلك الأزمة سبع سنوات، فطلب منهم أن يستفيدوا من سنوات الرخاء في زراعة المحاصيل التي تعرف بالمحاصيل الاستراتيجية، أي تلك المحاصيل التي يعتمد عليها الإنسان في غذائه مثل القمح والأرز والذرة وما إلى ذلك بالإضافة إلى الشعير والمنتجات العلفية التي تستخدم في تغذية المواشي فهذه هي المحاصيل والمنتجات التي تحفظ في سنابلها أما بقية المنتجات الزراعية مثل الطماطم والخيار وما شابه ذلك فليست ذات سنابل، لذلك فإنها لا تحفظ إلا بأجراء العديد من الصناعات التحويلية عليها.

وحفظ المنتجات الزراعية في سنابلها تعد أفضل وسيلة لتخزين تلك المحاصيل، فالسنابل تقي المنتجات النباتية كل الظروف المناخية وكذلك هجمات البكتيريا والفطريات والحشرات وكل هوام الأرض، ولكن

هذا لا يعني أنها تبقى كما هي لسنوات طويلة من غير أن تتأثر، إلا أن التأثر يكاد يكون معدوماً بالمقارنة لو تركت أو حفظت تلك المنتجات النباتية من غير سنابلها، ولقد أثبتت التجارب تلك الحقيقة، وهذا من الإعجاز القرآني.

ولم يكتفي سيدنا يوسُف بذلك وإنما دلهم على طريقة استهلاك تلك المواد الغذائية التي يجب أن تخزن بطريقة معينة، لذلك وجههم إلى المبدأ الأساسي والمهم في عملية الاستهلاك وهو (الاستهلاك من غير إفراط ولا تفريط)، ويمكن أن نقرأ ذلك في قوله تعالى (إِلاَّ قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ)، إلا أنه يجب أن نلاحظ إنه عليه السلام فهم أنه لو طبق مبدأ "لا إفراط ولا تفريط في الاستهلاك" في سنوات القحط والشدة فحسب فإنها تصبح عديمة الجدوى، فليس من الحكمة أن نترهل في الاستهلاك في سنوات الرخاء وأن نقوم باستهلاك كل ما يقع بين أيدينا في تلك السنوات، ثم نطالب الناس بشد الحزام في سنوات القحط، فإن ذلك لا يعد من التخطيط الحكيم ولا تعد رؤية بعيدة المدى في إدارة الأزمات، لذلك نجد أنه عليه السلام طلب أن يفرض هذا المبدأ الاستهلاكي على الناس من سنوات الرخاء، وحتى إن جاءت سنوات القحط يكون الشعب قد اعتاد هذا المبدأ ويمكنه أن يستمر فيه حتى يجتاز السنوات العجاف، ومن الجدير بالذكر إن هذا هو المبدأ العام للاستهلاك في الإسلام وذلك حسب قوله تعالى في سورة الأعراف – الآية 31 (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبِّ الْمُسْرِفِينَ)، وهذا هو مبدأ الاستدامة التي يلوح بها

السادة في هذا العصر وكأنهم هم الذين اخترعوا هذه الفكرة أو أوجدوها من العدم.

وحتى لا يستمر مبدأ نصف الكأس الفارغ، أرسل عليه السلام رسالة إيجابية على الرغم من أن الرؤيا لا توضح ذلك ولا تصل إليه وهي أنه بعد كل تلك السنوات العجاف ستمطر السماء وستنبت الأرض وستعود سنوات الرخاء من جديد، ويمكن أن نقرأ ذلك من خلال الآية (ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذلِكَ عامٌ فِيهِ يُغاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ).

وتنتهي قصة سيدنا يوسُف وحلم الملك، ومن خلالها يمكن أن نستخلص بعض العبر والفوائد من تلك الرؤيا والتي يمكن أن نسقطها على واقعنا الحالي منها الأمور التالية:

1. الاستعداد نفسي، يجب أن يعرف الشعب الواقع الذي يعيشه، وما التوقعات المستقبلية التي يمكن أن تأتي، وكيف يستعد، وما المطلوب منه ومثل تلك المعرفة حتى يشعر أنه جزء من هذا الواقع وأن رأيه مطلوب، وأن موقعه ليس هامش الحياة، وعلى ذلك يمكنه التعاون من غير أن يتذمر أو أن يشتكي، فالشفافية مطلوبة جداً في هذه المرحلة. فليس من المعقول أن تصدر التعليمات برفع الأسعار في منتصف النهار ويتم تنفيذ هذا القرار في منتصف الليل، فهل هذا تخطيط أو شفافية ؟
2. النفير العام والاستعداد البدني والصناعي لمجابهة الأزمة، وذلك من خلال الزراعة في سنوات الرخاء واستحثاث الصناعات

المصاحبة لذلك، مثل بناء المخازن والصوامع ووضع الأنظمة الاقتصادية للاستهلاك التي يجب أن تكون دقيقة، وحفظ الأمن ومنع الغش التجاري والتلاعب بالأسعار وما إلى ذلك، لأنه لابد أن تكون هناك مخالفات وتهرب من المسؤوليات وتهريب المواد الغذائية لبيعها في السوق السوداء وما شابه ذلك.

3. حفظ الموارد الطبيعية واستثمارها واستغلالها بطريقة مستدامة، فالأزمة قد تطول، والموارد قد تنضب والواقع ربما يسوء، ولكن في المقابل فإنه يجب أن تدار كل تلك العمليات بطريقة عادلة مستدامة فلا يترهل فئة على حساب فئة، ولا تعيش فئة في الواقع الوردي من الحياة بينما تعيش فئة أخرى في الواقع الرمادي.

4. فقه الألويات، قبل الأزمة أي أثناء مرحلة التخطيط وأثناء مرحلة الأزمة يجب أن تكون للحكومة رؤية واضحة وخطة مدروسة فتعرف إلى أين تريد أن تصل وكيف يجب أن تصل إلى هناك، لذلك يجب أن توجه كل طاقاتها لإدارة الأزمة وكيفية الخروج منها، فتسخر كل امكاناتها المالية والبدنية والصناعية وكل مواردها إلى ذلك، فلا نقيم الحفلات والمهرجانات التي ليس لها داع، ولا نستنزف الموارد المالية على أمور لا تدخل في ميزانية الدولة، ولا يكون هناك تقتير في جهة وإسراف في جهة أخرى، فهذا لا يحل الأزمة وإنما يزيدها تعقيداً.

وبعد كل ذلك، هل يمكن أن نسقط ما قام به سيدنا يوسُف عليه السلام على واقعنا المعاش اليوم، ونحن هنا نتحدث عن الواقع العربي الذي لا يخطط ولا يعرف أن يخطط ولا حتى يعرف كيف يدير أزمة.

وما زال للحديث بقية.